

وعلى ذلك يمكن القول - أن سانتيانا كوّن مع أستاذه وليم جيمس وجوزايا رويس - في أمريكا نوعاً من وحدة التأصيل التي تشير إلى ملحمة رائعة، لا في تاريخ الفلسفة الأمريكية فقط، بل في تاريخ الفلسفة الغربية أيضاً، هؤلاء هم فلاسفة هارفارد، الذين ظهروا في عصر تميز باضطراب التطور هم وليم جيمس، وجوزايا رويس، وجورج سانتيانا⁽¹⁾.

تلك هي أهم المصادر الرئيسية التي كان سانتيانا يدين لها بالفضل في أفكاره الفلسفية، أخذاً عن والديه الفكر المادى والعقيدة الكاثوليكية التي من صنع الخيال، ومن فلاسفة الهند واسينوزا الفكرة الأخلاقية، أما فلاسفة اليونان فهم المصدر الرئيسي لفكر سانتيانا، وبخاصة ديمقريطس وأفلاطون وأرسطو، وكذلك الفكر الشرقي القديم، كما كانوا المصدر الرئيسي لكل فلاسفة المغرب والمشرق على السواء، أما جيمس ورويس فهما الأستاذان الفاضلان الذين أخذ عنها سانتيانا أصول فكره الرئيسية في أمريكا بل وأوروبا أيضاً.

واقعية سانتيانا الطبيعية

الاهتمام بالطبيعة ليس وليد الفلسفة المعاصرة في القرن العشرين، فإذا كان الفيلسوف محل الدراسة يعد إمام النزعة الطبيعية في القرن العشرين، إلا أنه لم يكن هو أول من صاغ للفلسفة الواقعية أساساً طبيعياً، حيث أشار سانتيانا بنفسه إلى أن الفلسفة اليونانية كانت تؤمن بالطبيعة والسياسة أكثر من إيمانها بالروحانيات، ولم يتيسر للفلسفة اليونانية حتى الآن أن تتحول إلى هذا الندم المتعالى الذى لعب دوراً كبيراً في الفكر الهندي القديم، كما وجد ذلك الندم الترنسندننتالى بعد ذلك في التأملات المسيحية⁽²⁾. وقد أشار سانتيانا إلى الفلسفة اليونانية قبل سقراط، حيث توصل الفلاسفة اليونانيون بشكل تقليدى إلى حقيقة الفلسفة الطبيعية، والتي تم تأسيسها وإعادة بنائها متأخراً على يد اسينوزا وكذلك العلم الحديث، فالفلاسفة الطبيعيون كما يقول سانتيانا يتنازعون فيما بينهم البين، وذلك بسبب كونهم مرتبطون في مهمة إدراك ذلك الموضوع الذى لم يتحدد بعد، فهم حتى الآن مازالوا يرسمون ويتصورون البناء والتاريخ لذلك العالم الطبيعى الذى يحيا فيه كل واحد منهم⁽³⁾.

(1) ت.ل.س. سبيريدج: الصورة المميزة في الفلسفة الأمريكية، مرجع سابق، ص 393.

(2) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , in: the philosophy of George Santayana, Edited by Paul Arthur schilpp, Tudor publishing company, New York, 1951, P. 509.

(3) G. Santayana: General Confession, op. cit, P. 22.

واستكمالاً لما سبق، فقد أكد سانتيانا على أن أى دراسة أو وصف للأشياء الطبيعية في مستواها الخاص عبارة عن دراسة أو وصف للمادة، وأن أى فلسفة لكونها مادية تماثل فلسفتي، حيث تعتبر دراسة أو علماً للطبيعة فهي تعمل على درجة عالية من الكفاءة⁽¹⁾. ولهذا السبب كما يقول سانتيانا استخدمت كلمة النزعة الطبيعية عوضاً عن كلمة النزعة المادية، وذلك لأعبر عن معتقداتي الأساسية، ولكن كلمة النزعة الطبيعية تبدو انفتاحية أكثر من اللزوم، حيث تستخدم كتعبير عن المراوغة السيئة، فالنزعة الطبيعية ربما تشمل في داخلها النزعة السيكولوجية، أو ربما تعني فقط إحدى الاهتمامات الأخلاقية أو إحدى النظريات المنطقية المتاحة للتفكير المطلق، أما مصطلح المادية فإنه يبدو لي أكثر أماناً لأنه أكثر دقة⁽²⁾.

ولقد أشار سانتيانا إلى أن كلمة الطبيعة أحياناً تكتب بحروف كبيرة كما لو كانت الطبيعة تمثل العنصر الإلهي أو العنصر الشخصي، ففي الفلسفة القديمة والإدراك العام وكذلك العادات والقوى جميعها كانت تخص الطبيعة التي تتضمن بالتأكيـد خاصية أخلاقية في تكوين الشخصية. فالشعراء يمدحون الطبيعة، وعلماء اللاهوت يقومون بتكرار مناهجها الرائعة في نظام واضح، فكل هذه الأساطير عن الطبيعة تكون أساطير طبيعية، وربما توضح هذه الأساطير بشكل أفضل التقدير الكامل ماهية الطبيعة خير من العلوم الفيزيائية الدقيقة⁽³⁾. ولذلك كانت كلمة الطبيعة كلمة شعرية بدرجة كافية، حيث تقترح للإنسان الفكرة الطبيعية لأصل نشأته، كما تسيطر على وظيفته الرئيسية⁽⁴⁾. فإذا كانت الطبيعة هي النسخة المطابقة والنسخة العظيمة للفن⁽⁵⁾، فإن الطبيعة كما يقول سانتيانا «عبارة عن لوحة فنية موجودة في الذاكرة قابلة لأنقش عليها الرسم المنظوري Perspective لتجربتي الشخصية»⁽⁶⁾.

ولقد بدت النزعة الطبيعية عند سانتيانا عبارة عن نسق ونظام أولى وأساسي، أو بالأحرى نستطيع القول بأن النزعة الطبيعية ليست نظام خصوصي على الإطلاق، حيث أن الهيكل الذاتي

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 507.

(2) Ibid: P. 508.

(3) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, Dover Publications, Inc, New York, 1925, PP 233,234.

(4) Ibid: PP. 237,238.

(5) Ibid: P. 236.

(6) Ibid: P. 242.

والحتمى للمعتقدات المعقدة في الحياة الحيوانية، يجعل هذه المعتقدات لها أنظمة الفلاسفة المتنوعة من حيث أن تكون ممتدة وشاملة للبيئة الحارقة التي تكون طبيعية بالفعل في جوهرها الخاص بها، أو تكون عبارة عن تأويلات أو تفسيرات Interpretation (كما عند أرسطو واسبينوزا) أو تكون عبارة عن مجموعة استنكارات Denials (كما في المذهب المثالي)⁽¹⁾. وعليها لا يمكن أن تكون النزعة الطبيعية أكثر رومانسية، وذلك لأن الطبيعة حينئذ سوف تصبح عبارة عن قصة، ولا يمكن أن تكون هي العالم⁽²⁾.

وعليها أصبحت فلسفة سانتيانا فلسفة طبيعية تفسر الطبيعة بنفسها، فهو يذهب كما يذهب الفلاسفة الواقعيون - إلى أن وعى الإنسان بشيء ما من أشياء العالم الواقعي دليل على وجود ذلك الشيء كما هو في ذاته خارج الذات الواعية له، فمعرفة الإنسان للشيء الذي يدركه هي صورة تمثل ذلك الشيء تمثيلاً صحيحاً، على أن الانسان إذ يتصل بالأشياء ليدركها، فإنما يتصل بها اتصالاً مباشراً لا تكون فيه حلقي وسطي بين الذات العارفة والشيء المعروف⁽³⁾. لأن هدف الفيلسوف الطبيعي كما يقول سانتيانا - «هو وصف العالم منذ بدايته Its beginning» (إن كان له بداية) وأن يحدد التحولات Transformations - التي تمت فيه عن طريق التحليل وليس عن طريق التصور⁽⁴⁾.

ولذلك يستطيع العالم في النزعة الطبيعية عند الفيلسوف محل الدراسة أن يتحوى بكل سهولة شتى الأشياء غير المادية تحت إطار وجودها المادي، وذلك مثل الكلمات والأحاسيس والمشاعر والأفكار، والتي من المحتمل أن يتم تمييزها في هذه الخبرة الإنسانية، حيث أننا غير ملزمين أو مجبرين في النزعة الطبيعية أو هذا الاتجاه المادي بأن نتجاهل هذه الأشياء غير المادية. فالخاصية الأساسية في الأشياء غير المادية أنه يمكن إدراكها عن طريق كونها أسماء أو أشكال أو وظائف أو لكونها عبارة عن نتائج متلازمة لتلك الأشياء المادية⁽⁵⁾. كما أن الكائنات الطبيعية التي تظهر

(1) George Santayana: Dewey's Naturalistic Metaphysics, in: the Philosophy of John Dewey, edited by, p. A. Schilpp, Tudor Publishing company, New York, 1951, p.245.

(2) Ibid: P. 253.

(3) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 154.

(4) G. Santayana; Realm of Being, op. cit, p. 194.

(5) G. Santayana: Dewey's Naturalistic Metaphysics, op. cit, p. 246.

في عالم الواقع من المشاعر والأحاسيس الخاصة بالإنسان الطبيعي هي عبارة عن صورة أخلاقية لهذه الحياة الطبيعية⁽¹⁾. فعلى سبيل المثال - إذا كنت أدرك هذا القلم في يدي، وهذه الورقة أمامي، فلا بد أن يكون القلم والورقة موجودين وجودًا حقيقيًا لا يجوز الشك فيه⁽²⁾.

فإذا سأل سائل - كما يسأل الفلاسفة - ومن ذا أدراك حين تعي مجموعة من الصفات مجتمعة، ككون القلم وشكله وصلابته بين أصابعك، أن تكون هذه الصفات قد اجتمعت في شيء خارجي له وجود مفارق لوجود أفكارك الكائنة في ذهنك أنت؟ أليس كل ما تعرفه معرفة مباشرة هو خبرتك أنت التي هي في دخيلة نفسك؟ فما الذي يسوغ لك أن تجاوز هذه الخبرة الداخلية المباشرة لتزعم أن شيئًا خارجيًا يقابلها⁽³⁾.

أجاب سانتيانا - بما أسماه «الإيمان الحيواني» Animal Faith - «وهو عبارة عن غريزة فطرية إدراكية أو يقين تجريبي أو حتى كونه عبارة عن سببًا عمليًا»⁽⁴⁾. ففي كيان الإنسان الطبيعي هذا «الإيمان» بأن معرفته الداخلية صورة من عالم خارجي موجود، على اختلاف ما بين الجانبين، فالجانب الداخلي وعي وعقل، والجانب الخارجي مادة⁽⁵⁾. وقد أكد سانتيانا على ذلك الإيمان الحيواني بإعتباره مصدرًا للمعرفة، حيث يعد عند فيلسوفنا مصدر ثقته الوحيد في هذه الحياة الطبيعية، فذلك الإيمان هو نفس الشيء الذي يعطي للطفل الصغير الثقة والأمان تجاه والديه أو تجاه الحيوانات الأليفة، كما أن هذا النمو العقائدي المخيف للدين الإنساني هو إمتداد بهذا الشعور في أن الطبيعة هي الشخص أو مجموعة من الأشخاص في صفات ثابتة، ولكن في شخصيات سهلة التطويع⁽⁶⁾. ولا يعني ذلك أن تكون الفلسفة الطبيعية عبارة عن فكرة علمية، فيؤكد سانتيانا ذلك بقوله «إن فلسفتي الطبيعية ليست فكرة علمية، بل هي اقتناع عادل جاءتني كما جاءت أبي من خبرة العالم وملاحظته.. ويبدو لي أن غير الماديين لا يحسنون الملاحظة»⁽⁷⁾.

(1) Ibid: p. 246.

(2) زكي نجيب محمود: فلسفة وفن، مرجع سابق، ص 120.

(3) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 155.

(4) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 585.

(5) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 155.

(6) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P,234.

(7) هنري توماس ودانالي توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص 471.

فإذا كان برتراند رسل قد أخبر سانتيانا في انسجام جميل، أنه يتنهد كعاشق للمعرفة، ويطيع كابن للطبيعة⁽¹⁾، ولكن سانتيانا يعتقد أن رسل كاد أن يدرك كيف يكون ذلك الإيمان وظيفية أساسية للشيء الذي أقوم بوصفه، حيث اعتقد رسل أن الإيمان الحيواني الذي ينادى به سانتيانا عبارة عن بديل سيء للمعرفة في مبادئها، وذلك كما يعتقد «بانفى» Banfi أن الماهيات بديل للموضوعات غير المعروفة في نظرية المعرفة، ولكن الماهيات أوضح وأقرب كما يقول سانتيانا من أي شيء آخر قد أحتاج إلى البحث عنه أو تأكيده أو حتى احترامه، وهذا الإيمان الحيواني بعيد كل البعد عن كونه بديلاً للمعرفة، إذ أن هذا الإيمان هو مصدر للاستعلام، فبسبب كوني أمتلك ذلك الإيمان الحيواني، وأعتقد بأنه يوجد شيء يمكن اكتشافه أو يمكن الحصول عليه، فأستطيع أن أضع في الاعتبار أن إدراكاتي هي إدراكات للمعرفة، وأن نضع في الإطار تلك الافتراضات والتي بدون الإيمان سوف تصبح جميعها عبارة عن حدس للمعلومات والبيانات⁽²⁾.

لذلك لا بد من الركون إلى هذا «الإيمان الحيواني» - لكي نفرق بين حالتين مختلفتين من حالات الإدراك: أولاهما حالة نثق فيها بأن «الجوهر» - أو إن شئت فقل «الفكرة» - الماثلة في أذهاننا هي كذلك متجسدة في شيء عيني خارجي، وأما الثانية وهي حالة نتعلم فيها أن «الجوهر» الماثل في الذهن ليس متجسداً في شيء عيني خارجي، كما هي الحال في المدرجات العقلية وفي التصورات الخيالية وما إلى ذلك⁽³⁾.

وذلك لأن المادة بتجديدها الذاتي هي أعمق شيء في العالم، إنها أبعد شكل لكل شيء يمكن اكتشافه، فهي العالم الممكن اكتشافه بكامله في حركته الأساسية، إنها ما ينبري دائماً أمامنا في الحس وفي الفن ويستبد بمصائرنا⁽⁴⁾. وعليها يكون عندنا وجودين: وجود عيني يقابل الأفكار ذوات المسميات الخارجية، ووجود ذهني لمدلولات الأفكار الأخرى التي نعرف أن ليس لها مسميات خارجية⁽⁵⁾.

(1) G. Santayana: Apologia Pro Mente Sua , op. cit, P. 585.

(2) Ibid: P. 586.

(3) زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، الطبعة الثانية، بيروت، 1982م، ص 204.

(4) جورج سانتيانا: مولد الفكر وبحوث فلسفية أخرى، ترجمة/ لجنة من الأساتذة الجامعيين، منشورات دار

الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت، ص 127.

(5) زكي نجيب محمود: من زاوية فلسفية، مرجع سابق، ص 156.

إن الفرق الجوهرى بين الوجودين: الفكري من جهة والفعلى من جهة أخرى، هو نفسه الفرق بين ما كان أرسطو قد أسماه بالوجود بالقوة والوجود بالفعل، فالأول وجود بالإمكان فقط، مستعد لأن يخرج إلى الفعل إذا ما توافرت الظروف المواتية، والثانى وجود متعين متجسد فى أشياء واقعية، وواضح أن الموجودات الممكنة أكثر عددًا من الموجودات الفعلية، لأن تصور العقل للممكنات لا نهاية له ولا حدود، وأما الموجودات الفعلية فمقيدة بالواقع الكائن المتحقق، فكل موجود فعلى كان من قبل موجودًا ممكنًا، ثم تحقق⁽¹⁾.

إذاً هناك عالمان: عالم الممكنات وعالم الأشياء المتحققة، وهذا العالم الثانى مسبق دائماً بالعالم الأول، إذ محال على شىء أن يتحقق وجوده فى العالم المادى إلا إذا كان قبل ذلك فكرة فى عالم ما هو ممكن، حتى إذا ما برزت إلى الوجود الفعلى حفنه من بحر الممكنات الزاخر، كان لنا بذلك ما نسميه «بالحق» - فما «الحق» إلا الممكن الذى تحقق ظهوره بالفعل، ولكننا قلنا إنه كان يمكن لغيره من الممكنات أن يظهر بدل هذا الذى ظهر فعلاً وأصبح «حقاً» و إذن «فالحق» أمر عرضى لا تحتمه الضرورة العقلية المنطقية، وأعنى بذلك أنه لم يكن هناك ما يحتم أن يظهر هذا الذى ظهر دون سواه، أى أن ما نصفه بأنه «الحق» كان يجوز ألا يحدث حدوثاً فعلياً، وعندئذ كان غيره هو الذى سيوصف بأنه «الحق»⁽²⁾.

ويفسر سانتيانا ما سبق عن طريق المبادئ المادية الصرفة، وذلك هو ما يميز فلسفته بأنها فلسفة طبيعية مادية رغم كل ما اتصف به من شاعرية وروحانية، وذلك أنه جعل مبدأ اختيار العالم الفعلى الواقع من بين العوالم الكثيرة الممكنة لا هو بالمبدأ الخلقى كما ظن «ليبنز» Leibniz (1646 - 1617). ولا هو بالمبدأ العقلى كما ذهب «وايتهد» Whitehead (1861 - 1947) بل هو مبدأ مادى صرف⁽³⁾.

لقد أكد سانتيانا - أن نزعته المادية فى علم الطبيعة، والإنسانية فى الأخلاق، تعتبر أحد أنظمة الفلسفة المتكاملة، حيث كانت تلك النزعات هى مضمون الفلسفة اليونانية قبل سقراط، تلك الفلسفة التى كانت هيلينية حقاً، وتوافقت مع الحركة التى أنتجت أساس

(1) المرجع سابق: نفس الصفحة.

(2) المرجع السابق: ص 156، 157.

(3) زكى نجيب محمود: حياة الفكر فى العالم الجديد، مرجع سابق، ص 207: 208.

الأساليب اليونانية من حكومة يونانية وفن يوناني، والحركة نحو البساطة، والحكم الذاتي، والمعقولة في كل شيء من الملبس إلى الدين، وهكذا كانت فلسفة عصر النهضة الأوروبية، حيث كانت إعادة تنظيم للعلم والحرية في العصر الحديث قبل «بيكون» و «اسينوزا» Spinoza (1963 - 1977) بل قبل المدرسة المعاصرة بأكملها التي ترى في العلم مضمون الوقائع الحقيقية، وترى سعادة الرجال على الأرض في مثاليتها، هذا النظام يدعى بالنزعة الطبيعية⁽¹⁾.

ولكن.. ما الدليل الذي يمكن أن يكون لوجود الطبيعة فيما تعنيه هذه الكلمة؟

يقول سانتيانا «إذا كنت أتحدث عن الكون Universe بشكل عام، فإنه لا يمكن أن يكون هناك دليل قاطع، فالكون بالطبع يجب أن يكون في كينونته الحالية، فلا يجب أن يكون له صفة أو خاصية، فالكون يجب أن يمثل فكرة الماهية، ولكن إذا أخذت الكلمة بالمعنى الكلي، فإنها ربما تعبر عن الفوضى chaos التي من خلالها لا يوجد شيئاً يكون مقدراً، ولا متقدماً أو متطوراً باستمرار، والتي فيها الأجزاء تكون ذاتية حول المركز Self - Centered وتكون فيها الأحداث تلقائية⁽²⁾. وأن مثل هذا الكون الفسيح لا يمكن أن ندعه بالطبيعة لأنه لا يعطينا الميلاد، لأنه لا يملكه، ولا يعطينا التنشئة أو التربية، أنه لا يحيطنا بأى تأثيرات ثابتة أو مألوفة لدينا، أنه لا يعطينا أية بذور لنمو شجاعتنا أو تحذيرنا⁽³⁾.

أما الدلائل لوجود الطبيعة فيجب أن نسعى وراءها في مكان آخر، في المنطقة التي تسمى بمنطقة المونادات أو الذرات، والتي تعتبر كيان داخلي لكل موناد، وفي هذه الحالة فإن المواد أو الجواهر Substance التي قد استخدمتها في إذعان غرائز الحيوية، فإنها تبدو كأنها تتصرف كما لو كانت أجزاء للطبيعة⁽⁴⁾.

ويؤكد سانتيانا نزعته الطبيعية اليونانية الأصل في قوله «هي عبارة عن مذهب طبيعي فيما يتصل بأصل الجنس البشري وتاريخه، ووفاءً في الشعور الأخلاقي ملهم من العقل، الذي يتصور

(1) G. Santayana: Three Philosophical Poets, Doubleday Anchor Books, New York, 1953, p. 13.

(2) G. Santayana: Scepticism and Animal Faith, op. cit, P, 235.

(3) Ibid: P, 236.

(4) Ibid: P, 236.

به الذهن البشرى الحقيقة والسرمدية، ويشارك فيهما بالفكرة»⁽¹⁾. وبالتالي تصبح النزعة المادية العامة في فلسفة سانتيانا مثل أى نظام للفلسفة الطبيعية، لا تحمل معها وصايا ولا نصائح، فهى تصف العالم مجردًا، وتحيل كل ما فى العالم إلى أرض مادية⁽²⁾.

(1) هريوت شنيدر: تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة / محمد فتحى الشنيطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص ص 384، 385.

(2) G. Santayana: Three Philosophical Poets, op. cit, P. 36.